

مدينة المسيلة دراسة تاريخية وأنتربولوجية

أ/- صليحة رحلي
المدرسة العليا للأساتذة
- بوزريعة -

المخلص:

تعتبر مدينة المسيلة من أهم حواضر المغرب الإسلامي في العصر الوسيط وساهمت مساهمة فعالة في بناء الحضارة الإسلامية بالمغرب الأوسط عامة وإقليم الحضنة خاصة، فقد شكلت قاعدة عسكرية تنطلق منها الحملات العسكرية لإخماد الثورات في المغرب الأقصى، وصد هجمات القبائل الزناتية التي كانت تهدد استقرار الفاطميين في المنطقة، وقام بتأسيسها أبو القاسم بن عبيد الله المهدي سنة (315هـ/927م) وأوكل بناءها إلى الأسرة الحمدونية (علي بن حمدون) وأطلق عليها اسم المحمدية، وعرفت المدينة في عهد بني حمدون تطورا كبيرا في جميع المجالات (الاقتصادية، العسكرية، العلمية)، وأصبحت عاصمة لإقليم الزاب، وقصدها رجال المال والأعمال والعلماء والشعراء من مختلف أنحاء المغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية:

المسيلة؛ الزاب؛ الدولة الفاطمية؛ الحضنة؛ الأسرة الحمدونية؛ القبائل الزناتية.

Summary:

The city of Msila is considered to be one of the most important Islamic Maghreb's cities in the Middle Ages. It had an effective contribution in creating the Islamic civilization in the Middle Maghreb in general, and in El Hodna territory in particular. Yet, it was an army base that paved the way to military campaigns so as to put down revolts in the Middle Maghreb.

Also, to defend against the Zanatian tribes' attacks which were a threat to the stability of the Fatimid in the territory. Msila was founded by Abu Al Qasim Ibn Ubaid - Allah Al Mahdi (315 hijri- 927 ce). He assigned the task of its building to the Hamdanids(Ali Ben Hamdun). In their era, the city witnessed an establishment and development in all the fields (economy, defense, science ... etc).

It became the capital of the Zab territory and an attraction to businessmen, scientists and poets from all over the Islamic Maghreb.

Keywords:

Msila; zap; Fatimid humiliation; brood; Hamdoni family; Zenat tribes.

المقدمة:

عرف المجتمع الجزائري العديد من التغيرات على مر التاريخ، تباينت أسبابها ومبرراتها، كما تباينت مظاهرها ونتائجها، وهي تُفيد بذلك أن التحول والتغيير سنة طبيعية في مسار المجتمع، ولقد اختلفت العلوم وتباينت منذ أقدم العصور في تصوراتها وموضوعات دراساتها والميادين التي تركز عليها مفاهيمها وآرائها، غير أن الإنسان يظل المحور الذي تدور حوله جُلّ دراسات العالم، ومدينة المسيلة أو كما عرفت سابقا بالمحمدية من المواضيع التي لها عمق تاريخي يعود إلى العهد الفاطمي (العبيدي)، ولقد وردت ذكر مدينة المسيلة عند الكثير من الجغرافيين والمؤرخين كالبكري وصاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار والوزان واليعقوبي وابن حوقل والإدريسي وياقوت الحموي وغيرهم، كما أن عمرانها عرف توسعا وتقلصا، وذلك حسب متغيرات الحوادث والوقائع الزمنية، وهذا ما نحن بصدد إبرازه من خلال التطرق إلى: تاريخ وأسباب تأسيسها ومراحل نشأتها وتطورها، والتطور العمراني لمدينة المسيلة ودراسة لأهم القبائل التي عاشت بها.

أولاً: تاريخ تأسيس مدينة المسيلة ومراحلها.

كثيرة هي الكتابات التاريخية والجغرافية التي تناولت مدينة المسيلة في إطار تاريخ المغرب الإسلامي، وقدمت معلومات مهمة خاصة في الفترة الإسلامية الوسيطة، كما ساهمت الدراسات الحديثة الأجنبية التي قام بها على وجه الخصوص الأثريون والمترجمون الفرنسيون بداية من الاحتلال في إعطاء منطقة المسيلة كغيرها من مناطق الجزائر صورة معرفية هامة حول الوجود الروماني والبيزنطي، ما كانت تفتقده الكتب الإسلامية التي سبقت فترة قدومهم إلى الجزائر، إلا أن الملفت للنظر أن كلا الكتابات الإسلامية والأجنبية أغفلت الفترات السابقة لهما، ونعني بها الفترة البربرية.

تنسب المسيلة البربرية إلى كلمة المسيل أو مدينة المياه السائلة وهذه التسمية مرتبطة بوفرة وتعدد المجاري المائية التي تتمتع بها المنطقة منذ فترات قديمة من التاريخ، والتي تعبر عن وجودها بقايا الآثار القديمة الرومانية المجسدة في السود وقنوات المياه والأحواض المخصصة للسقي الموضوعة على الأودية والسواقي كوادي القصب ووادي لقمان ووادي اللحم ووادي سلمان.¹

وكان موضع مدينة المسيلة التاريخية أي البربرية الأصل على حواف وادي سهر أو القصب حالياً وعلى أنقاض خرائب تعرف بخربة تليس، الذي ينسب حسب الذاكرة المحلية إلى أحد عرب الحجاز تارة، وهذا القول ضعيف جداً، انطلاقاً من طبيعة المسيلة البربرية وسكانها من قبائل البربر قبل تاريخ قدوم هاته القبائل العربية والتي لا نعرف عنها الشيء الكثير، وهناك من يرجع اسمها تارة أخرى إلى قائد روماني يدعى ايليس Ellic وكلا الروايتان لا تتحدث إلا على جزء من مدينة أو حي يحمل اسم خربة تليس في يومنا هذا، بينما تتكون المدينة من أحياء شرق وادي السهر وأحياء غربه، وكانت على بعد 4 كيلومتر من خربة بشيلقا أو المسيلة الرومانية أو zabi justiniana وهي مدينة تقع بالقرب من مواقع رومانية بالحضنة مثل خربة الجساسة وأراس Aras أو تارمونت ومقرة Macri وبين قرطاجة والقيصرية.²

لقد امتد نفوذ البيزنطيين عقب اندحار الوندال في سهول المسيلة الشمالية الغنية بالمياه الآتية من السلاسل الجبلية التالية، كما عملوا على مراقبتها وحرصتها عبر مدن مثل فاقس vassis التي يذكرها المؤرخ يلين Pline بأنها كانت في عهد الرومان بمثابة سوق -التي تبعد بـ: 10 كم عن مدينة المسيلة- للإنتاج الزراعي للمقاطعة الداخلية للإمبراطورية⁹. أما عن تاريخ إعادة تأسيس المدينة الرومانية زابي بعد خرابها في فترة الغزو الوندالي، فيرجعها المؤرخون إلى سنة 539م¹⁰، والبعض الآخر إلى 541م¹¹، وهي السنة الأقرب باعتبار القائد سولومون تحرك من قرطاجة نحو المنطقة في خريف 541م.

أما خلال العصر الوسيط فقد ذكرت المسيلة في كتابات الرحالة والجغرافيين العرب فذكرها اليعقوبي بقوله: "ومدينة يقال لها مقرة لها حصون كثيرة، المدينة العظمى مقرة أهلها قوم من بني ضبة وبها قوم من العجم وحولها قوم من البربر يقال لهم بنو زنداج وقوم يقال لهم كزبرة وقوم يقال لهم سارسة، ومنها حصون تسمى برحلس وظلمة وحبرور بها قوم من بني تميم من بني سعد يقال لهم بنو الصمصامة خالفوا على بن الأغلب ظفر بن الأغلب ببعضهم فحبسهم"

أما البكري فقد ذكر: "يخرج من القلعة إلى مدينة المسيلة، وهي مدينة جلييلة على نهر يسمى بنهر سهر أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف باين الأندلسي... وهي مدينة في بساط من الأرض عليها سوران بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة وله منافذ يسقى منها عند الحاجة، وللمدينة أسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة..."¹²

وعن قلعة بني حماد ذكر البكري: "وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة وتمصرت عند خراب القيروان، انتقل إليها أكثر أهلها من افريقية، وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز والشام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة..."¹³

ويقول ياقوت الحموي: "المسيلة بالفتح ثم الكسر والياء ساكنة، مدينة بالمغرب تسمى المحمدية، اختطها أبو القاسم بن عبيد الله في سنة 315هـ، وهو يومئذ ولي عهد أبيه وأبو القاسم يلقب بالقائم بعد المهدي من المنتسبين إلى العلويين الذين كانوا بمصر ينسب إليها أبو العباس أحمد بن محمد بن حرب المقرئ بمصر، قرأ القرآن ورحل إلى بطليوس فلقى بها أبا بكر محمد ابن مزاحم الخزرجي وقرأ عليه أبو حميد عبد العزيز بن علي بن محمد بن سلمة السيجاني المقرئ"¹⁴

وعن قلعة بني حماد يقول: "قلعة حماد مدينة متوسطة بين أكم وأقران لها قلعة عظيمة على قمة جبل يسمى تاقربوست تشبه في التحصن ما يحكى عن قلعة أنطاكية، وهي قاعدة ملك بني حماد بن يوسف الملقب بلكين بن زير بن مناد الصنهاجي البربري وهو أول من أحدثها في سنة 370هـ، وهي قرب أشير من أرض المغرب الأدنى، وليس لهذه القلعة منظر ولا رواء حسن إنما اختطها حماد للتحصن والامتناع..."¹⁵

كما ذكرها الإدريسي: "ومن المسيلة إلى طبنة مرحلتان وطبنة مدينة الزاب... تخرج من المسيلة إلى مقرة مرحلة وهي مدينة صغيرة وبها مزارع وحبوب وأهلها يزرعون الكتان وهو عندهم كثير ومن مقرة إلى طبنة مرحلة..."¹⁶

يرجع كثير من المؤرخين والكتاب تاريخ تأسيس المدينة الجديدة للمسيلة أو المحمدية الفاطمية إلى سنة 315هـ/ 927م عندما رسم معالمها الأمير الفاطمي (العبيدي) أبو القاسم وخطط عمرانها علي بن حمدون، فقامت في منطقة كانت تخفي أثارها وجود حضارات متقدمة شهدتها المنطقة قبل وخلال الاحتلال الروماني. كما أن المنطقة لم تكن في حالة فراغ بشري استدعى تعميمها، بحيث كانت تقطنها قبائل بربرية مثل بنو كملان ورنдах وصدراته ومزاته وغيرهم، قبل أن يخرجهم أبا القاسم الفاطمي إلى فحص القيروان، بعد أن ساهمت هذه القبائل في مقاومة المد الفاطمي.¹⁷

يعود تاريخ إنشاء المحمدية على اختلاف الروايات إلى سنة 315هـ، وذلك حينما توجه أبو القاسم محمد القائم بأمر الله على رأس حملة عسكرية لإخماد ثورة بالمغرب الأقصى في صفر 315هـ/ 929م، وأثناء رجوعه مرّ بمكان بلد المسيلة وأمر بإنشائها حيث خط برمحه في الأرض صفة بنائها وهو راكب على فرسه وسماها المحمدية نسبة إليه.¹⁸

وعليه فإن نشأة المسيلة البربرية الأصل أقدم من ظهور الفاطميين ببلاد المغرب ومن سنة تأسيس مدينة المحمدية سنة 315هـ/ 927م التي نسبت إليها المسيلة، وأن المحمدية لم تكن سوى ضاحية جديدة للمسيلة البربرية، وأن المسيلة البربرية ليس هي زابي جوستنينا الرومانية، كما ربطها الفرنسيون وباحثي التاريخ اللاتيني الروماني، ولم تكن المسيلة سوى بلدة بربرية على مقربة من حصن روماني يسمى بزابي جوستنينا نسبة إلى الإمبراطور البيزنطي جوستنيان، وأنها كانت نواة لظهور وتوسع المدينة الإسلامية الفاطمية التي أخذت اسم المحمدية إلى جانب اسم المسيلة التي استمر اسمها في مختلف الكتابات التاريخية¹⁹، بينما اختفى اسم المحمدية كما اختفت معه الدولة والدولة الفاطمية بعودة المذهب السني بفضل المعز بن باديس الحمادي منذ 440هـ.

بالنسبة للبنية العمرانية في هذه المدينة فإنها من المواضيع الصعبة بسبب الطبيعة البدوية في تلك المرحلة التاريخية، ولكن المصادر التي نوهت إلى حصانتها تجعلنا أمام حقيقة تاريخية هي وجود بنايات وتحصينات وصلت إلى مستوى قاعدة عسكرية للفاطميين، بينما لم تتحدث عن البنايات المدنية ويمكن إرجاعها لسببين: البنايات المدنية لم تكن موجودة بالشكل الكافي للحديث عنها، أو أن طبيعة القبائل البربرية التي كانت تسكن المنطقة لم يكن البناء ضمن منظومتها.

ومن التحصينات التي ذكرتها المصادر أنه كان يحيط بها سور واحد من الطوب حيث يقول ابن حوقل: "...وعليها سور من طوب..."²⁰ وهناك من قال بوجود سورين وجدول ماء يقول البكري: "...مدينة في بساط الأرض عليها سوران بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة..."²¹ ويؤيده ابن عذاري: "...ولها سوران بينهما ساقية..."²²

ثانياً: السكان:

يعود أصل سكان المسيلة إلى قبائل بربر زناتة بني برزال وبني كملان من بربر البرانس، وهم السكان الأصليون للمسيلة، قال ابن حوقل: "...وعليها من البربر بنو برزال وبنو زنداح وهوارة ومزاتة وعليهم صدقات وخراج غزير..."²³ أما الإدريسي فأورد: "...ويسكنها من البربر بنو برزال وزندراج وهوارة وصدراتة ومزاتة... وابن عذاري: "...وسط أرض بني برزال وبني كهلان بالقرب من هوارة..."²⁴، كما أورد ابن خلدون ما يلي: "...وبها بنو كملان من هوارة وكان يتوقع منهم الفتنة فنقلهم إلى فج القيروان..."²⁵

وبذلك تعد قبيلة بني برزال البربرية الزناتية من أكبر القبائل التي سكنت المسيلة، وبنو كملان وهم من بربر البرانس من بطون هوارة ومنهم من ينسبهم إلى عرب اليمن، ومزاتة التي تعد من أكبر بطون لواتة ومن فروعها دغمة وبطوفة بالمسيلة وبغايا بجبل نفوسة²⁶، بالإضافة إلى سدراتة من قبيلة لواتة وقبيلة أوغمرت.

كما عرفت المنطقة دخول العرب في القرن 7م كفاتحين مثل عقبة بن نافع الفهري، ومن بعدهم الأدارسة²⁷، وفي مرحلة ثانية نجد الهجرات الهلالية خلال القرن 11م على إثر القطيعة السياسية بين الدولة الفاطمية بمصر ونوابها الزيرين بتونس في عهد المعز بن باديس الصنهاجي حيث دخلوها من جهة الهضاب ما بين الأطلس الصحراوي والتلي وانتشروا في سهول الحضنة وفي ضواحي المسيلة حيث توجد أراضيها الزراعية الغنية، ثم تمكنوا من دخول المسيلة فنهبوا وخرّبوا مبانها وأسواقها.²⁸

كانت قبائل بني هلال عبارة عن قبائل بدوية رعوية فقيرة اجتاحت المنطقة، وحاصرت قلعة بني حماد وسيطرت عليه، وقسمت أملاك الجهة فيما بينها حيث كانت هذه القبائل تمتد مواطنها من تونس إلى المغرب ومعهم رياح وزغبة والمعقل وجشم وقررة والأتباج والخلط وسفيان، وأمام عجز الإمارة الحمادية لمقاومة الهلالين والتصدي لهم قرر الناصر بن علناس نقل عاصمة الحماديين من قلعة بني حماد إلى بجاية الناصرية في سنة 1090م، ومن جهة أخرى عجزت قبائل صنهاجة عن صد الزحف الهلالي²⁹.

كانت قبائل بني هلال تسكن بيوتا منسوجة من الصوف وشعر الماعز والوبر خفيفة يسهل حملها عند التنقل وعند الحرب، وكانوا يربون الخيل ويتفخرون بصفاء أعراقها، ويكسبون العديد من الأنعام لحمل أثقالهم والانتفاع من لحومها وألبانها وأصوافها وجلودها، وكانوا يتجهون في الشتاء إلى الصحراء، وإلى مناطق التل في الصيف، وكانوا يراقبون الطرق التجارية الهامة التي تمر بالحضنة، والتي كانت تربط بين المغرب وإفريقية فلا يتركون غيرهم يمرون إلا إذا دفع إتاوة، الأمر الذي جعل التجارة البرية

بالمغرب تضعف مع مرور الزمن بل تنقطع في كثير من الأحيان بسهول الحضنة.³⁰

وكانت كذلك قبائل زناتة تعيش حياة البداوة قبل مجيء العرب الهلاليين إلى المغرب وذلك لأن حياتهم تتماشى مع طبيعة السهوب والصحراء لا دخل لنسب فيها بل كانت البيئة هي المسيطرة عليها.

وفي الفترة العثمانية استطاع حسن آغا في سنة 1541م من بسط نفوذه على المسيلة، وخلال سنة 1710م بدأت عملية المصاهرة حيث ظهرت بها فئة اجتماعية متميزة هي فئة الكراغلة، وبذلك ظهرت أحياء جديدة بالمسيلة مثل حي الكراغلة الخاص بالكراغلة، وحي الجعافرة وحي الشتاوة.³¹

ثالثا: الأبحاث التاريخية عن منطقة المسيلة:

تعتبر الفترة الفرنسية بداية البحث الأثري لمنطقة المسيلة، ومن أهم الدراسات دراسة الضابط الفرنسي دو بواسون De Boysson حول الآثار الرومانية بالمنطقة والتي نشرت عام 1869م، تطرق فيها إلى قبور الدولمن المتواجدة بمنطقة الجرجبال المعاضيد، كذلك أعمال النقيب الفرنسي باين Payen يسلط باين في دراسته على الإمكانيات الزراعية والهيدروغرافية للمنطقة من خلال الإشارة إلى ماضيها القديم لاسيما الفترة الرومانية التي شهدت استغلالا مثاليا للأراضي الزراعية والثروة المائية مما جعل منها واحدة من أهم المراكز الزراعية الرومانية بشمال إفريقيا³²، بالإضافة إلى دراسات الدكتور شاو ولوي بيبس وليون رونيي والنقيب مانقلون وريمون فوفري وبراديز وجاك تيكسي، كل هذه الأبحاث سارت في البحث التاريخي المتعلق بالفترة الرومانية والبيزنطية، ولم يهتموا بالحضارة الإسلامية إلا ما تعلق مع تزامنها بالفترة الرومانية، أو ما تعلق بالآثار الإسلامية البارزة خلال العهود الزاهرة للإمارات الإسلامية بالمغرب الإسلامي كعهد الدولة الحمادية.

ومن أهم الدراسات المحلية خلال الفترة المعاصرة دراسات الأستاذ بيرم كمال المختص في تاريخ المنطقة والتي تعتبر من الدراسات القيمة، حيث درس تاريخ المنطقة منذ الفترة القديمة وإلى الفترة المعاصرة، خاصة خلال فترة الاحتلال الفرنسي، تطرق خلال كتاباته لمختلف الجوانب التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية... حيث وضح الكثير من الحقائق التاريخية المرتبطة بتاريخ المنطقة.

الخاتمة

نستخلص أن نشأة المسيلة البربرية الأصل أقدم من ظهور الفاطميين ببلاد المغرب ومن سنة تأسيس مدينة المحمدية سنة 315هـ/927م التي نسبت إليها المسيلة، وأن المحمدية لم تكن سوى ضاحية جديدة لحاضرة المسيلة البربرية، وأن المسيلة البربرية ليست هي زابي جوستيانا الرومانية، كما ربطها الفرنسيون وباحثي التاريخ اللاتيني الروماني، ولم تكن المسيلة سوى بلدة بربرية على مقربة من حصن روماني يسمى بزابي جوستيانا نسبة إلى الإمبراطور البيزنطي جوستيان، وأنها كانت نواة لظهور وتوسع المدينة الإسلامية الفاطمية التي أخذت اسم المحمدية إلى جانب اسم المسيلة.

الهوامش:

- ¹-بيرم كمال، "حول اسم ونشأة مدينة المسيلة: مساهمة تاريخية"، مجلة آثار، مجلد 15، ع1، جامعة أبو القاسم سعد الله، الجزائر، ص133.
- ²-Maguelonne :J: Monographie Géographique et Historique De la tribu du Hodna Orientale in. R.S.A.C, 1909,p9.
- ³-بيرم كمال، المرجع السابق، ص134.
- ⁴- البكري أبو عبد الله، المسالك والممالك، تح وتق: أدريان فان ليفون، أندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992م، ج2، ص723.
- ⁵- Vayssette,(E) :visite a Boussaâda et m'sila in revue africaine 1873,p,98.

⁶-بيرم كمال، المرجع السابق، ص134.

⁷-نفسه، ص135.

- 8-البكري أبو عبد الله ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، تحقيق: دوسلان، مكتبة المثنى، بغداد، ص59.
- 9-بيرم كمال، المرجع السابق، ص135.
- 10 -Maguelonne .:J:Monographie Géographique et Historique De la tribu du Hodna Orientale in. R.S.A.C, 1909,p243.
- 11- Poulle,(A):Ruine de Bechilga (zabi) ,in RAF N°5,1861,P200.
- 12-البكري، المصدر السابق، صص722-723.
- 13-إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص163.
- 14-ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، دار الفكر، بيروت، د. ت. ط، ص64.
- 15-إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص168.
- 16- جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992م، صص365-368.
- 17-بيرم كمال، المرجع السابق، ص138.
- 18-أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح: محمد يوسف الدقاق، ج7، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ص190.
- 19-بيرم كمال، المرجع السابق، ص143.
- 20-ابن حوقل النصيبي أبو القاسم محمد، صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1996م، صص73-85.
- 21-البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت. ط، ص59.
- 22-ابن عذارى، المصدر السابق،
- 23-ابن حوقل، المصدر السابق، 85.
- 24-ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص190.
- 25-ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحاتة وسهيل زكار، ج4، دار الفكر العربي، بيروت، 2010م، ص51.
- 26-قارة مبروك بن صالح، ولاية المسيلة حضارة أصالة ثقافة، المؤسسة الصحفية، المسيلة، 2015، ص16.
- 27-قارة مبروك بن صالح، أولاد زيد تاريخ وأبعاد أشرف أحفاد، دار الخلدونية، 2009م، ص26.

